العراق.. النزاع بين الإيمان والإلحاد

الأحزاب الدينية انقضت على التدين الوسطي وساهمت في انتشار ظاهرة الإلحاد

كان العراقيون، خلال العقود بل القرون السابقة، أي قبل الصحوة والحملة الإيمانية، يوازنون موازنة دقيقة بين الدِّين والدُّنيا، ليس هناك من نزاع بين الآبـاء والأبناء أو لنقل بـين الأجيال، في الموقف من الدِّين، فبَشـكل عامٍ مـارس العراقيون دينهم على أنه قضية شـخصية أولا، واجتماعية ثانياً، مـن دون صدام مع الحداثة ومقدمات التَّنوير، التي شـرعت بالدخول إلى العراق والتأثير فيه، منذ تأسيس الدَّولة العراقية الحديثة.

زمن الصحوة وتشديد الخناق

زيد بن رفاعة

على سـبيل المثال، عندمـا ثار الجدل ببغداد عن الحجاب والسُّفور، ظِل بحدود الصحافة والكتابة والأدب والشـعر، ولم يحصـل أن برز رجل ديـن يُكفر خصومه، ولم يحصـل أن يلجـأ رجل ديـن ويدفع بالعشائر أو الأتباع ضد خصومه، وانتهت معركة الردود باسـتمرار أهـل القناعات المختلفـة علـى قناعاتهم، وأخـذ يتزايد عدد السـافرات أو حاسرات الرأس، بل إنّ وزير المعارف نفسـه، وهو محسوب على التيار الدينـي، وكان صحاب عِمامة ومِن مدينة دينية، اشـترك لصالح الحجابيين، ولكنـه بعـد توسـع المدنية ببغـداد أخذ يتصدر الحفلات الطلابية التي تظهر فيها المعلمات والطالبات بلا أحجبة.

لـم يحصـل أن وقـف رجـال دين أو متشـددين دينيـاً ضـد الدولـة العراقية بفتحها لدور السينما، والتي بدأ افتتاحها منذ العشـرينات مـن القـرن الماضي، ثم تزايد العدد بشكل لافت، حتى غدت بغداد لا يغيب عن شاشات قاعاتها أحدث الأفلام العربيـة والأجنبية، وظل قطاع السـينما خاصـا، ثم دخـل القطاع العـام بامتلاك صالات سـينمائية، تُعـرض فيها الأفلام ذات المغزى الثقافي والاجتماعي.

> ما بين الإيمان والإلحاد فجوة كبيرة، بينها القوى الدينية ليست الأحزاب فقط، بل المرجعيات الدينية، وسدنة الوقفين الشيعي والسني

ظلت بغـداد، والبصـرة ومراكز بقية المـدن العراقيـة تعـجّ بقاعـات وصالات السـينما والنـوادي الاجتماعيـة، التي تُقدّم المشروبات الروحية، من دون دعوات دينيـة ضدهـا، ولا احتجاجـات تؤجـج العوام وتدفعهم للتمرد، فمعلوم أن بغداد العباسية جمع شاطئ نهرها بين المساجد والنـوادي، بين مـدارس الفـن والمدارس الدينية، من دون جـدل على من هو الحق ومَن هو الباطل؟ هكذا كان الحال، فالبيئة، وهـي بيئة غنيـة تتمكن مِـن امتصاص الكوارث الطبيعيـة والملمات الاجتماعية، من طواعين وحروب، بسرعة، فليس هناك مجال كي يفترس الناس اليأس، ويطلقوا الدنيا والتوجه إلى الآخرة، وهذا يتطلب، بطبيعة الحال، اللجوء إلى التدين بأسفل مستوياته.

لـم تظهر بالعراق سُـلطات دينية، إلا في فترات قليلة جداً، فُرضت فيها شـروط التدين، ضد غير المسلمين وضد المسلمين غيـر المتدينـين. لقـد اسـتغرب الشـيخ علي طنطـاوي، مِـن تدين أهـل العراق، وهـو إخواني معروف، عـاش ببغداد في الثلاثينـات من القرن الماضي، وكان يعمل مدرسـاً، وكذلك زارها بالتنسيق مع رفاقه الإخـوان العراقيين عدة مرات، أسـتغرب لأنه يرى بـين ركاب الباص العراقيين مَن يُدخن فـي رمضان، ويُطلـق ألفاظ تمس الديـن، وبهذا حكم علـى العراقيين بعدم التدين، جاء ذلك فـي كتابه "بغداد"، غير أن هـذا الإخواني يريد التدين على مقاس جماعتـه، الذيـن بدأوا يعملـون من أجل إظهار الصحـوة الدينية عن طريق العمل السياسي والاجتماعي.

نشـط التدين بتأثير الأحزاب الدينية منذ السبعينات، تبنّاه الإخوان المسلمون والقـوى الشـيعة ومنهـا حـزب الدعوة الإسـلامية، الذي تأسـس في العام 1959، وعملـت هذه القـوى على غـرس التدين بصفته السياسـية والحزبية، وبدأ العمل بالبنوك اللاربوية، على البنوك الرسـمية ربوية، وبـدأ النزاع فـي المجتمع وداخل الأسـر، بـين أخ متديـن منتـم إلـى تلك القـوى وآخـر غيـر متدين، حتـى وصل الحـال أن أبناء يتخلون عـن أبيهم لأنهم اعتنقوا مبادئ حـزب الدعوة أو الإخوان المسـلمين، وبدأت كراهية لغير المسـلمين وغير المتدينين، تطفو على السـطح، وهذا ما يمكـن أن يُطلق عليه بزمـن الصحوة الدينيـة، والتي اشـتدت بتأثيـر الثورة الإيرانيـة وحـرب أفغانسـتان، وكذلـك الحروب التي خاضها العـراق، والحملة الإيمانية التي أقيمـت بعد حرب الخليج الثانيـة، ثـم الحصـار المدمـر، فتوجـه المجتمع إلى الدين، وتعاظم دوره.

ظهـر الإخـوان المسـلمون يوزعـون الأحجبـة ونسـخ القـرآن علـى طالبات الجامعـات، وعلـى غيـر المحجبـات في الدوائر، وكثـرت البرامج الدينية، وأغلق الكثيـر من النوادي. كانـت ظاهرة صلاة الجمعة بالكوفة وبثها عن طريق أشـرطة ظاهـرة جديدة في المجتمـع، فتعاظم دور رجـل الدين محمد محمد صـادق الصدر، وتعاظم أتباعه من الشباب الذين ينتمون إلـى المناطق الريفية، وهـو يرتدي الكفن كإشـارة للتحـدي، وأخـذ يتحـدث عـن مرجعية ساكتة ومرجعية ناطقة، على أنه يُمثّل الناطقة.

بعد سقوط النظام (عام 2003) وجدت الأحـزاب الدينيـة الأجـواء متهيئة لها، فحافظـت علـى كل قوانـين وإجـراءات الحملة الإيمانية السـابقة، فظهر التدين الشـعوبي، ممثلاً في المواكب الحسينية، وتوزعـت الحـوزات الدينيـة على المدن والأرياف، بعد دخول العامل الإيراني في نشـر هذه الظاهرة. فالأتباع الذين صلّوا وراء الصـدر، وبعضهم جعـل منه رجلا مقدّسا، التفوا حول ولده مقتدى الصدر، ليتكون التيار الصـدري وجيش المهدي، ومن العمائـم التي تخرج أصحابها على يد الصدر الأب، انشـقوا وشكلوا أحزاباً وجماعـات، وميليشـيات، مثل "عصائب أهل الحق"، و"حزب الفضيلة" وغيرهما.

لكـن مـع قـوة الحضـور الدينـي، وضعف الحضور المدني، لم تخل الساحة العراقية من وجود معارضين ومعترضين على طريقـة الأحزاب الدينيـة في الأداء الحكومي، فبدأ الجـدار الديني يتصدع، بانسـحاب أصحـاب عمائم مـن المجال الديني، وتبنيهم للفكر المدني، ومنهم من تبنى علانية الإلحاد بعد الشك في الدين نفسه، وهذا ما حصل أيضاً بإيران، حيث أن متعصبـين لولايـة الفقيه بدأ شـكهم في الولاية نفسـها، ثم تدرج إلى الشـك بالدين نفسـه، وقد تأسسـت لضبط هذا الأمر محكمة تسمّى بمحكمة رجال الدين بإيران، وما زالت فاعلة.

كذلك تصاعد عدد الشباب، من الذكور ممـن قاطعوا الحسـينيات والمسـاجد، والإناث ممـن خلعن الحجـاب، وقد بدأ إلحادهم بالأحزاب الدينيـة، فتطور إلى الإلحاد بالدين نفسـه. فمن المعلوم أن كل تشدد يسفر عن ضده، آجلاً أم عاجلاً، فمن يتابع صفحات التواصل الاجتماعي يجد عدداً من الشـباب، من الذين لم يخرجوا من العـراق، بل ومن المناطق البعيدة عن بغداد ومـن بغداد قصبات المدن الأخرى، يتحاورون في هـذه القضية، ويُثار جدل كبيـر بين الملحدين والمؤمنين. لهذا يمكن اعتبـار أداء الأحـزاب الدينية السـيء سـبباً مهمـاً في وجـود هـذه الظاهرة، يُضاف إليهـا التطور العلمي والتواصل الاجتماعي السريع جدا.

فالسـؤال مـاذا الـذي يدفع شـاب عمره سـتة عشـر عاماً، ومن المنخرطين في العمل الديني الـذي تغطيه المرجعية الدينية نفسـها، إلى أن ينقلب إلى الكفر بالمرجعية ثم الكفر بالدين نفسـه؟ وماذا يدفع قيادي دعوي أن يقوده الكفر بحزب الدعـوة إلى الخـروج عن الدين نفسـه، وكان قد اعتمـر العمامة بتأثر ثقافي من الحزب نفسه.

يغلـب على الظن، أن مـا بين الإيمان والإلحـاد فجـوة كبيـرة، بينهـا القوى الدينيـة، ليسـت الأحـزاب فقـط، بـل المرجعيـات الدينيـة، وسـدنة الوقفـين الشيعي والسُّني، وسدنة المراقد الدينية، فالمتدينـون أصبحـوا طبقة رأسـمالية مصلحيـة، انقضـوا علـى ذلـك التدين المتـوازن، وانهوا الوسـط بـين الإلحاد والإيمان.

قيود متزايدة على الأديان في أنحاء العالم

ازدادت القيود الحكومية المفروضة على الدين في العديد من الأماكن حول العالم بشكل ملحوظ. ويلفت بحث أجراه معهد بيو الأميركي، شمل بيانات جمعـت من 198 بلدا حـول العالم، إلى أن هذه القيـود امتدت من الدول الاستبدادية، لتصل إلى العديد من الدول الديمقراطية الأوروبية.

ديفيد كراري

نيويـورك – يوثّـق التقرير السـنوي العاشـر لمركز بيو، والذي يـدرس القيود العالميـة علـى الديـن، كل مـا يتعلـق بالمضايقـات والعنف اللذين سـلطا على الأفراد لدوافع دينية. وفي دراسـة شملت الأفـراد المنتمـين إلـى أكبـر ديانتين في العالـم، أكـد المسـيحيون تعرضهم إلى مضايقات واعتـداءات في 143 دولة، فيما قـال المسـلمون إنهم كانـوا ضحايا هذه الممارسات في 140 دولة.

وحسـب البيانات التـي خلص إليها المركـز، تفـرض 52 حكومـة (بمـا فيهـا الروسـية والصينية) قيـودا صارمة على الدين. وارتفع هذا العدد من 40 خلال عشر سـنوات. كما أشـار التقرير إلـى معاناة 56 دولة من أعمال عدائية لأسـباب دينية خلال سنة 2017، وارتفع هذا العدد من 39 دولة سنة 2007.

وسـجّلت منطقـة الشـرق الأوسـط وشـمال أفريقيا أعلى مستوى من القيود الحكوميـة علـى الدين من بـين المناطق الرئيسية الخمس التي شملتها الدراسة، تليها منطقة آسـيا والمحيط الهادي. ومع ذلك، شهدت أوروبا أكبر زيادة في القيود التـي فرضتها الحكومات على شـعوبها خلال السـنوات العشـر التي امتدت إلى 2017، حيث ارتفع عدد الدول التي تفرض قيـودا على اللباس الدينـي (بما في ذلك البرقـع والنقـاب اللذيـن ينتشـران بين النساء المسلمات) من 5 دول إلى 20 دولة.

ومن بـين تدابير أخرى اتخذت سـنة 2017، قـررت الحكومة النمسـاوية حظر ارتـداء النقاب فـي الأماكـن العامة. كما أيّد البرلمان الألماني مشـروع قانون يحظر النقـاب والبرقع فـي المكاتـب العمومية والمحاكـم ومنشـآت القـوات المسـلحة، ومنعـت سـلطات المنقبـات مـن قيـادة السيارة والعمل في مجال الخدمة المدنية. أمـا في سويسـرا، فوافـق الناخبون في منطقتـين على حظر ارتـداء النقاب، وأيد الناخبون على مستوى البلاد فرض حظر على بناء مآذن جديدة.

وفـي إسـبانيا، فرض بعـض حكام البلديـات حظرا علـى النقـاب والبرقع، وقيـدوا الوعـظ العلني والتبشـير الذي تعتمـده مجموعات مثل "شـهود يهوه" و"كنيسـة يسوع المسـيح لقديسي الأيام الأخيـرة" التي تجمع أكثـر من 15 مليون عضو في العالم.

كما مثّـل ختان الصبيان مشـكلة في أوروبا. واشـتكت الجماعات الإسـلامية واليهوديـة فـي ألمانيـا وسـلوفينيا من تدخل المسؤولين الحكوميين في تقاليدهم الدينية عبر محاولة تجريم الختان بحجج غير طبية.

وعلـى مسـتوى العالـم، قـال "بيو" إن مـن بين الـدول الـ25 الأكثـر اكتظاظا بالسـكان، سجلت الصين وإيران وروسيا ومصـر وإندونيسـيا أعلى مسـتوى من القيود الحكومية. وسجلت جنوب أفريقيا واليابـان والفلبـين والبرازيـل وكوريـا الجنوبية أدنى مستويات من القيود.

وفـي ما يتعلـق بمضايقات الحكومة للجماعات الدينية، قال المركز إن الظاهرة كانت أبـرز في منطقة الشـرق الأوسـط وشـمال أفريقيـا، لكنه ركّز علـى مثالين من آسيا. أشـار التقرير إلى إرسال مئات الآلاف من مسـلمي الإيغور إلى معسكرات إعادة التثقيف في الصين، بينما شـهدت أقليـة الروهينغـا المسـلمة فـي ميانمار انتهاكات واسـعة النطاق مما دفعها إلى النزوح.

تطرّق التقرير إلى المضايقات الدينية التـي يشـنّها الأفـراد والجماعـات غير الحكوميـة. وصنّفـت الولايـات المتحدة من بين الدول الأسـوأ في هذه الفئة سنة 2017، ويرجـع ذلـك جزئيـا إلى مسـيرة "وحـدوا اليمين" المؤيدة لسـيادة البيض فـي شارلوتسـفيل بفيرجينيـا، أين رفع المتظاهرون البيض رمـوزا نازية ونازية جديدة مثل الصليب المعقوف والحديدي، والأعـلام الكونفدرالية، ورموزا لجماعات مناهضة للمسلمين ومعادية للسامية.

وسـجّل المركـز البحثي أكبـر زيادة فـي العـداء الديني المسـلط مـن الأفراد في أوروبا. وشـملت قائمـة الضحايا في الحـوادث المذكـورة في التقرير "شـهود يهوه" فـي أوكرانيـا وحاخامـا وامرأة مسـلمة فـي بلجيكا. كمـا أشـار "بيو" إلـى تقارير فـي ألمانيا تفيد بـأن الآلاف مـن اللاجئين تعرضـوا لضغوط من أجل اعتناق المسيحية بعد تهديدهم بالترحيل.

جوسلين سـيزاري، وهي أستاذة في الديـن والسياسـة في جامعـة برمنغهام في بريطانيا، تعتبر أن التمييز الحكومي والمجتمعي ضد المسلمين في أوروبا يشكّل تهديدا للمبادئ الأوسع للحرية الدينية.

وترى أن القوانين، مثل حظر الحجاب، تلعـب دورا إيجابيـا لـدى الجماعـات الإسـلامية المتطرفة "التي تبني شرعيتها بين صفوف الشباب المسلم في أوروبا عبر تقديم الغرب كعدو للدين الإسلامي".

وقال جوناثان لورانس، وهو أسـتاذ في العلوم السياسـية في كلية بوسـطن شـملت كتاباته موضوع مسلمي أوروبا، إن نقاش القـارة حول حظر الحجاب عزز الأحزاب الشـعبوية لكنه فشـل في سـد الانقسامات الاجتماعية.

وقال في رسالة بالبريد الإلكتروني إن قوانين الحجاب خلقت مفارقة، حيث كانت تهدف إلى فرض الاندماج، لكنها سـرعان ما أدت إلى إنشـاء مدارس دينية مدعومة من القطـاع العام أين يرتـدي الأطفال ما يريدون.

> قوانين الحجاب خلقت مفارقة، حيث كانت تهدف إلى فرض الاندماج، لكنها أدت إلى إنشاء مدارس دينية مدعومة من القطاع العام

وكان التمييـز والاضطهـاد الدينـي موضـوع مؤتمـر انطلـق الثلاثـاء فـي مقـر الخارجيـة الأميركية في واشـنطن وتتواصل أشـغاله طيلة 3 أيام، بمشاركة كبار ممثلي الحكومات والمنظمات الدولية والزعمـاء الدينيـين ونشـطاء المجتمـع المدني. وأعلن السـفير الأميركي للحريات الدينية، سام براونباك، إلى أن الأديان من جميع الأنواع معرضـة للاضطهاد. وقال فـي مؤتمر صحافـي بـوزارة الخارجية "إن كل ديـن يمثّـل أغلبيـة في مـكان ما، لكنـه يمثّل أقلية في مـكان آخر أين غالبا ما يتعـرض معتنقوه للاضطهـاد. ولهذا السـبب، يتمثل جزء كبير من جهودنا في توحيد الأديان وجعلها تدافع عن بعضها البعض".

وأضـاف "نحـن لا نتحـدث عـن المعتقـدات المشـتركة، لا يتفـق أحد على هذه النقاط. نحن نتحدث عن حق إنساني شامل مشترك".

قوانين حظر الحجاب تلعب دورا في تغذية أقاويل الجماعات الإسلامية